مَقَاصِدُ الْحَجِّ

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

مَقَاصِدُ الْحَجِّ

اعداد
عبدالرزاق بن عبد المحسن البدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فرض على عباده حجَّ بيته الحرام ، ورتَّب على ذلك جزيل الأجر ووافر الإنعام ، فمن حجّ البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه نقيًّا من الذُّنوب والآثام ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له الملك العلاَّم ، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله خير من صلى وحجَّ وصام ؛ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الخيار الأعلام ، أمَّا بعد :

حجاج بيت الله الحرام : نحمد الله عَزَّوَجَلَّ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه أن يسَّر لنا جميعاً المجيء لأداء هذه الطاعة والقدوم للقيام بهذه العبادة ، وأن أكرمنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن جعلنا في هذا العام من وفود الرحمن ، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : ((الحُجَّاجُّ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللهِّ ؛ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ))[1] ، فلله الحمد حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، له الحمد على كل نعمة أنعم بها علينا في قديمٍ أو حديث ، أو سرٍّ أو علانية ،

(١) رواه البزار في مسنده كما في كشف الأستار (١١٥٣)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في السلسلة الصحيحة (١٨٢٠) .

أو خاصة أو عامة ، ونسأله ﷻ أن يوزعنا جميعاً شكر نعمته وحُسن عبادته وأن يوفقنا لكلِّ خيرٍ يحبه ويرضاه .

حجاج بيت الله الحرام : موضوع هذه الكلمة «مقاصد الحج» موضوعٌ عظيمٌ للغاية وذو أهمية بالغة ، وكلُّ واحدٍ منا يحتاج بين يدي أدائه لحج بيت الله الحرام أن يُذكَّر بمقاصد الحج العظام ليؤدِّي مناسكه وليقوم بشعائره محققًا تلك المقاصد ومتممًا تلك الأهداف.

والحج ركنٌ من أركان الإسلام وهو طاعةٌ عظيمة وعبادة جليلة وقربة من أعظم القرب التي يتقرب بها المؤمنون إلى الله ﷻ ، له مقاصد نبيلة وأهدافٌ جليلة جديرٌ بنا أن نستذكرها ، وهي كثيرة لكنني أجتزئ بذكر أهمها وأعظمها ، ومن الله وحده أستمد العون وأستمنح التوفيق ، وأسأله سبحانه أن يتقبل هذا الجهد وأن يعظم البركة فيه إنَّه وحده الولي لا شريك له ، وبه وحده التوفيق .

۞ **المقصد الأول من مقاصد الحج العظيمة وهو أعظمها وأجلُّها** : تحقيق التوحيد لله تبارك وتعالى والبراءة من ضده وهو الشرك بالله والخلوص منه ؛ فهذا أجلُّ مقصدٍ وأعظم هدف ، لأن التوحيد هو الأساس الذي خلقنا الله ﷻ لأجله وأوجدنا ﷻ لتحقيقه .

ومن خلال مناسك الحج العظيمة وشعائره الجليلة ومشاعره المباركة تظهر جلياً مكانة التوحيد العظمى ومنزلته العليا وأنه أساس يُبنى عليه دين الله ﷻ وتقام عليه كل طاعة يتقرب بها المؤمن إلى الله ﷻ ، بل إن كل طاعةٍ وعبادةٍ لا تكون قائمة على توحيد الله والبراءة من الشرك فإن الله ﷻ لا يقبلها من العامل . ولهذا قال جابر رضي الله عنه – كما في صحيح مسلم – في سياقه لحجة النبي ﷺ : ((فَأَهَلَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ ، لَا شَرِيكَ لَكَ»))[1] ؛ وهذه الكلمات العظيمات كلمات توحيد وإخلاص لله جل وعلا وبراءة من الشرك ، بينما كان المشركون يهلُّون بالشرك والتنديد ففي صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما

(١) صحيح مسلم (١٢١٨) .

قَالَ: ((كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللهَّ ﷺ «وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ» ، فَيَقُولُونَ : إِلاَّ شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ)) [1].

وفي قوله: «لا شريك له» وقد تكرّرت في التلبية مرَّتين ، مرة عقب إجابته بقوله «لبيك» ، ومرة عقب قوله: «إنّ الحمد والنعمة لك والملك» ؛ فالأول يتضمَّن أنَّه لا شريك له في إجابة هذه الدعوة ، والثاني يتضمَّن أنَّه لا شريك له في الحمد والنعمة والملك .

وإذا تقرّر أنَّ الحمد كله لله ، والنعمة كلها من الله، والملك كله له ، ليس له شريك في ذلك بوجه من الوجوه فليُفرد وحده بالتلبية والخضوع والمحبّة والانقياد والطاعة والإذعان. وكيف يُجعل مع الله ﷻ شريكاً في العبادة من لا يملك في هذا الكون من قطمير ، وليس له مع الله ﷻ شركة في الملك، ولا يملك نفعاً ولا دفعاً ، وليس بيده عطاءٌ ولا منع – تعالى الله عما يشركون- ، بل إنّ الأمر كله لله لا شريك له ، وهذا من أبين ما يكون من دلالة على فساد الشرك ، وأنّ أهله من أسفه الناس وأضلِّهم عن سواء السبيل .

---

(١) صحيح مسلم (١١٨٥) .

وقال عليه الصلاة والسلام في الميقات عندما أهلَّ بالحج : ((اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَة)) [1] ثم مضى إلى مكة ملبياً بكلمات التوحيد العظيمة المشتملة على التوحيد وتحقيقه والبراءة من ضده ، يرددها عليه الصلاة والسلام في طريقه إلى مكة وفي تنقلاته بين المشاعر .

ثم إنَّ الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، والوقوف بمزدلفة ، والقيام بأعمال الحج الأخرى كل ذلك طاعات وعبادات قائمة على التوحيد ؛ يجب على كل حاج أن يقصد بهذه الأعمال كلها والطاعات جميعها وجه الله ﷻ ، فإن الله لا يقبل عمل عامل إلا إذا كان قائماً على التوحيد له ﷻ ، ولهذا جاء في الحديث القدسي أنَّ الله ﷻ يقول : ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)) [2] .

وعلى الملبي الذي أكرمه الله ﷻ بالتلبية بهذه الكلمات العظيمة أن يستحضر معانيها وأن يعي دلالاتها وأن يسعى حياته في تحقيق التوحيد الذي دلت عليه ؛ فيكون مخلصاً دينه لله ﷻ ، لا يسأل إلا

---

(١) رواه ابن ماجة في السنن (٢٨٩٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥) .

الله ، ولا يستغيث إلا بالله ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يذبح إلا لله ، ولا ينذر إلا لله ، ولا يصرف شيئًا من العبادة إلا لله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] ؛ بحيث يكون مستمسكاً بالتوحيد، محافظاً عليه مراعياً لحقوقه، مجانباً لنواقضه وما يضاده من الشرك بالله ، حذِراً تمام الحذر من الوقوع فيه ، أو في شيء من أسبابه ووسائله وطرقه ، على هذا يحيى وعليه يموت وعليه يُبعث بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ **المقصد الثاني من مقاصد الحج** : الفوز برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والنجاة من ناره والفوز بغفرانه ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؛ وقد دل على هذا المقصد العظيم أدلة كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)) [1] ، و قوله عليه الصلاة والسلام : ((الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))[2]، و قوله عليه الصلاة والسلام في حديثه لعمرو بن العاص : ((أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا

(١) رواه البخاري (١٥٢١) .

(٢) رواه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) .

وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ)) [1] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : ((تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ)) [2].

والفوز برضوان الله عَزَّوَجَلَّ هو أكبر المنن وأجلّها ، قال الله تَعَالَى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٧١-٧٢].

فذكر جل وعلا أولاً أعمالهم من طاعةٍ لله تَعَالَى ولرسوله ﷺ ، وقيامٍ بفرائض الإسلام وواجبات الدين ، وعملٍ على تبيان دين الله عَزَّوَجَلَّ نصحاً لعباده وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ثم أتبع ذلك - جلَّ شأنه - بذكر ما أعدَّ لهم ذكراً متدرجاً ؛ فبدأه بذكر أنَّه تَعَالَى أعدَّ لهم جنات تجري من تحتها النهار ، ثم أتبع ذلك تَعَالَى بذكر المساكن

(١) رواه مسلم (١٢١) .

(٢) رواه الترمذي (٨١٠) .

العظيمة والغرفات العليّة التي أعـدَّها لهـم نـزلاً ومسـكناً في تلـك الجنات ، ثم ذكر الكرامةَ الكبرى والمنةَ العظمى ألا وهيَ رضوانه – تبارك وتعالى – عنهم قال : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، ثم ختم السياق بقوله : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

فقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وإن كان لم يُذكر المفضَّل عليه بعد قوله : ﴿أَكْبَرُ﴾ للعلم به وبياناً لِعظم رضـوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وجلالةِ شأنه وأنَّه أكبر من كـل نعـيم وأجـلّ مـن كـلِّ عطيـة ، وذلك أنَّ رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفة من صفاته عَزَّوَجَلَّ ، وجنتُه وما فيها من كرامات وعطايا وهبات مخلوق مـن مخلوقـات الله عَزَّوَجَلَّ ، فرضـوان الله أكبرُ من كلِّ نعيم ؛ أكبر من الجنة وأكبرُ من كل نعيم في الجنـة إذ هو أعظمُ كرامةٍ وأجلُّ عطية .

ويوضح هذا المعنى في الآية وإن كان واضحاً ظاهراً ما خرّجـه البخاري ومسلم في صـحيحيهما مـن حـديث أبي سـعيد الخـدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : ((إِنَّ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَـا وَسَـعْدَيْكَ فَيَقُـولُ: هَـلْ رَضِـيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِـنْ خَلْقِـكَ !! فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِـنْ ذَلِـكَ، قَـالُوا: يَـا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ

أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ !! فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا)) [1] ، وروى الحاكم في مستدركه بإسنادٍ صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئاً فَأَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَمَا فَوْقَ مَا أَعْطَيْتَنَا ؟ قَالَ : يَقُولُ : رِضْوَانِي أَكْبَر)) ؛ أي : أكبر من الجنة وما فيها .

فينبغي على كلِّ مسلم أن يُودِع قوله تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ في صدره ، وأن يحرص على حضوره في ذهنه في كل مقام وفي كل موقف وفي كل حال – في الحج وغيره – ؛ لأنَّ هذه الآية إذا قامت في القلب وكان ما دلت عليه هو مقصدَ الإنسان وغايتَه ومطلبه فإن أحوالَه كلها تصلح وأموره كلها تطيب .

۞ **المقصد الثالث من مقاصد الحج** : تحقيق تقوى الله جل وعلا ، وقد أكثر الله عزوجل في آيات الحجِّ على قلَّتها من الوصيَّة بالتقوى؛ لأنَّه يحصل في الحجِّ من أسباب التقوى ما لا يحصل في

(١) صحيح البخاري (٦٥٤٩) ، صحيح مسلم (٢٨٢٩) .

غيره ، وذلك مع الوعي الصحيح بحقيقة الحج ومغزاه ، وقد تكرَّرت الوصيَّة بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ في سياق آيات الحجِّ من سورة البقرة .

ففي الآية الأولى من هذه الآيات قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ ، وفي أثناء هذه الآيات قال سبحانه : ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ ، وختم جلَّ وعلا آيات الحجِّ بقوله : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ . وقال ﷻ في سورة الحج : ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ ، وقال : ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧] .

والتقوى هي أعظمُ وصيَّة وخيرُ زاد ليوم المعاد ، وهي وصيَّة الله ﷻ للأوَّلين والآخرين من خلقه، كما قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١] ، وهي وصيَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ لأمَّته ، فقد كان ﷺ إذا بعث أميراً على سريَّة أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ وبمَن معه من المسلمين خيراً ، وكان كثيرَ الوصيَّة بها في خُطبه ، ولمَّا خطب الناسَ في حجَّة الوداع يوم النحر وصَّى الناسَ بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ ، ولم يزل السَّلف

الصالح يتواصون بها، وذلك لأنَّها خيرُ زاد يبلِّغ إلى رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، ولمَّا قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتَّق الله، أجابه عمرُ بقوله: « لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها »، والنقول عن السلف في هذا كثيرة [1].

فما أجمل أن يعود الحاج من حجه متزوداً بهذا الزاد العظيم المبارك، فإنَّ وصيَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ بالتقوى المتكرِّرة في آيات الحجِّ ودعوتَه سبحانه لأولي الألباب إلى تقواه تدلُّ على أنَّ أهلَ العقول والألباب ينبغي عليهم - وقد أكرمهم الله بالحجِّ - أن يجعلوا تقوى الله عَزَّوَجَلَّ من أكبر مقاصدهم في حجهم، وأن يُعمِلوا عقولَهم وألبابَهم في تلك المشاعر العظيمة ليستفيدوا منها تقوى الله، فالحجُّ مدرسةٌ عظيمةٌ للتقوى وبابٌ عظيمٌ من أبوابها.

۞ **المقصد الرابع من مقاصد الحج**: إقامة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ بل إن الأعمال الصالحة كلها شُرعت لأجله، وما تقرب متقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بمثله؛ فالصلاة شُرعت لإقامة ذكر الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ١٥٠ ـ ١٥١).

[طه:١٤] ، والحج والصيام وكل طاعة إنما شرعت لإقامة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ، ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة:١٩٨] ، ويقول جل وعلا : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج:٢٧-٢٨] .

فذِكر الله عَزَّوَجَلَّ من مقاصد الحج ؛ بل إنَّ الحج وغيره من الطاعات إنما شُرع لإقامة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام كما في مسند الإمام أحمد وغيره : ((إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)) [1] ؛ فنحن نطوف بالبيت ونسعى بين الصفا والمروة ونقف بعرفات ونقف بمزدلفة ونرمي الجمار إلى غير ذلك من الأعمال من أجل إقامة ذكر الله تبارك وتعالى ، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ هو أجلُّ الأعمال وأعظم الطاعات ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام : ((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ – أي الفضة – وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا

(١) مسند الإمام أحمد في المسند (٢٣٢١٥) .

عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللهَّ تَعَالَى)) [1] ، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢] ، ويقول جل وعلا : ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥] .

فذكر الله عَزَّوَجَلَّ طاعة عظيمة وعبادة جليلة يجب أن يكون حاضراً معنا في حجنا في صلاتنا في صيامنا في كل طاعاتنا ؛ لأن أعظم الناس أجراً في كل طاعة أكثرهم فيها ذكراً لله ، روى الإمام أحمد والطبراني عن معاذ ابن أنس الجهني رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّ رجلاً سأله فقال : أَيُّ الْجِهَادِ أَعْظَمُ أَجْرًا ؟ قَالَ : ((أَكْثَرُهُمْ للهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا)) ، قَالَ : فَأَيُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا ؟ قَالَ : ((أَكْثَرُهُمْ للهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا)) ، ثُمَّ ذَكَرَ لَنَا الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَالصَّدَقَةَ كُلُّ ذَلِكَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ((أَكْثَرُهُمْ للهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا)) ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُّ تَعَالَى

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٧) .

عَنْهُ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ : يَا أَبَا حَفْصٍ ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ !! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((أَجَلْ)) [1] .

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : « إنَّ أفضلَ أهل كلِّ عمل أكثرُهم فيه ذكراً لله عزَّ وجلَّ، فأفضلُ الصُّوَّام أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ في صومهم، وأفضلُ المتصدِّقين أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، وأفضلُ الحُجَّاج أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، وهكذا سائر الأعمال»[2].

ولهذا فإن الحجاج ليسو في حجهم على درجة واحدة ، وليس أجرهم فيه سواء ؛ لأن فيهم المكثِر من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ، وفيهم المتوسط ، وفيهم المقل ، وفيهم الغافل اللاهي المعرض ؛ والله المستعان.

۞ **المقصد الخامس من مقاصد الحج** : تقوية الإيمان ؛ فإنَّ في الحجِّ مجالاً واسعاً لإصلاح النفوس وتهذيب القلوب وزيادة الإيمان، فكم فيه من الدروس الرائعة والعبر المؤثّرة في إقبال القلوب

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٥٦١٤) ، والمعجم الكبير للطبراني (٢٠/ رقم:٤٠٧) وهو حديث حسن بما له من شواهد.

(٢) الوابل الصيب (ص:١٥٢).

على الله عَزَّوَجَلَّ ، وشدَّة رغبها ورهبها ورجائها وخوفها، وكثرة رجوعها وإنابتها ، فكم من دمعة صادقة في الحجِّ أُريقت، وكم من توبة نصوح قُبلت ، وكم من عثرة أُقيلت ، وكم من خطيئةٍ حُطَّتْ ، وكم من دعاءٍ خاشع أجيب ، وكم من رقبة من النار أُعتقت .

ومجالات تقوية الإيمان وأسبابُ زيادته في الحج عديدةٌ ومتنوِّعةٌ، فهو يهدمُ ما كان قبله ، والمبرورُ منه ليس له جزاء إلاَّ الجنَّة، ومن أدَّاه بلا رفث ولا فسوق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه، وهو ينفي الذنوب كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد ، كما صحَّت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

وكم كان الحجُّ نقطةَ تحوُّلٍ في حياة كثير من الناس من سيِّءٍ إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، والشواهدُ على هذا والوقائعُ المؤكِّدةُ له تفوق الحصر.

وكم من حاجٍّ تحرَّى مواطنَ الإجابة في الحجِّ ومدَّ يديه إلى ربِّه خاشعاً متذلِّلاً طامعاً في فضله العظيم ، وسأله أن يُجدِّد الإيمانَ في قلبه وأن يثبِّته عليه، وأن يصرفَ عنه الفتنَ ما ظهر منها وما بطن، وأن يُصلح له دينَه ودنياه وآخرته، وأن يُزيّنه بزينة الإيمان، وأن يجعله من الهُداة المهتدين. والله عَزَّوَجَلَّ لا يُخيبُ عبداً دعاه ولا يردُّ

عبداً ناجاه، وهو القائلُ سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦] ، وثبت في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((الحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ؛ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ))[1].

فحريٌّ بمَن أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالحجِّ أن يكون في حجِّه مخبتاً لربِّه متواضعاً لجَنَابه ، منكسراً بين يديه ، يرجو رحمتَه ومغفرتَه ويخاف عذابه ومقتَه ، تائباً من كلِّ ذنب اكتسبته يداه ، ومن كلِّ خطيئة مشت إليها قدماه ، مُكثراً من الذِّكر والدعاء والاستغفار والتضرُّع؛ لينقلب من حجِّه خير منقلب ، وليعودَ إلى أهله وبلده على خير حال ، فيبدأ صفحةً جديدة في حياته عامرةً بالطاعة والصلاح والاستقامة، بقلب مطمئنٍّ ونفس منيبة وفؤاد مخبت، سائلاً ربَّه الثبات على الإيمان والسلامةَ من الفتن ، وبالله وحده التوفيق.

۞ **المقاصد السادس من مقاصد الحج العظيمة** : تعميق الاستجابة لله تبارك وتعالى والامتثال لأمره والطواعية له ﷻ

(١) سبق تخريجه .

والانقياد لشرعه ؛ وهذا مقصد عظيم جليل من مقاصد الحج ينبغي أن نتنبه له ، وهذا يبرز ويظهر في مجالات وجوانب عديدة في الحج من أهمها وأعظمها التلبية التي تتكرر من الحاج عشرات المرات ولربما مئات المرات بحسب نشاط الحاج في التلبية ، وهي كلمات استجابة وامتثال لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ، وفي التلبية تتكرر كلمة « لبيك» أربع مرات ، وهي كلمة استجابة ، أي : أنا مستجيب لك يا الله ممتثل لأمرك منقاد لشرعك ، دعوتني لحج بيتك فقلت «لبيك اللهم لبيك» .

قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج:٢٧] . فجاءت الإجابة من أهل الإيمان لنداء الرحمن بأن قالوا : «لبيك اللهم لبيك» أي : نحن مستجيبين لك يا الله ممتثلين لأمرك منقادين لما دعوتنا إليه . وتكرار كلمة لبيك في التلبية تأكيد للاستجابة ؛ فقولك «لبيك اللهم لبيك» أي : استجابة من بعد استجابة ، وانقياد من بعد انقياد ، وامتثال من بعد امتثال.

ويشرع للملبِّي أن يرفع صوته بالتلبية كما جاء في الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال : ((أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ : مُرْ أَصْحَابَكَ أَوْ مَنْ مَعَكَ

أَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّلْبِيَةِ)) [1] ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه سئل: ما الحج ؟ فقال: ((الْعَجُّ وَالثَّجُّ)) [2] والعج : هو رفع الصوت بالتلبية.

ورفع الصوت بالتلبية له معنى عظيم وأثر جليل على العبد في تحقيقه الاستجابة والامتثال لأمر الله ﷻ ، وقد جاء في حديث رواه الترمذي عن سهل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا)) [3] ، عندما تلبي وترفع صوتك بالتلبية فإن الشجر والحجر والجبال عن يمينك وشمالك يلبي بتلبيتك ، ونحن معاشر الحجاج وإن كنا لا نسمع صوت تلبية الشجر والحجر والجبال إلا أننا من ذلك على يقين لأن الذي أخبرنا بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، ومن شواهد ذلك في القرآن قول الله عز وجل : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(١) رواه الدارمي في سننه (١٧٥٥) وغيره .

(٢) رواه ابن ماجة في سننه (٢٨٩٦) .

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٨٢٨) .

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤] ، ويقول جل وعلا : ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠] . فالكائنات تسبِّح ، وعندما يمر الملبي بالشجر والحجر والجبال فإن هذه الكائنات من حوله تلبي .

هذه التلبية المتكررة تكراراً كثيراً على لسان الحاج ؛ ليس تكرارها أمرًا لا معنى له وترددًا لا فائدة من ورائه حاشا وكلا ، بل إنَّ هذا التكرار من شأنه أن يعمق في قلبك أيها الحاج استجابتك لله عَزَّوَجَلَّ وامتثالك لأمره ، ليس فقط في مكة وفي تنقلاتك بين المشاعر بل في حياتك كلها ؛ دعاك الله عَزَّوَجَلَّ للحج فقلت «لبيك اللهم لبيك» ، فيا مَن أمرك اللهُ بالحجِّ فلبَّيتَ النداءَ وجئتَ ميمِّماً بيته العتيق ترجو رحمتَه وتخاف عقابه كيف حظُّك مع بقيَّة الأوامر ؟ كيف شأنك مع الصلاة التي هي عماد الدِّين وأعظم أركانه بعد الشهادَتَين ؟ كيف شأنك مع الصيام ؟ كيف شأنك مع الزكاة ؟ كيف شأنك في البُعد عن النواهي وترك المحرمات ؟ إن كنتَ ممتثلاً فاحمد الله واسأله المزيدَ ، وإن كنتَ مفرِّطاً مضيِّعاً فحاسب نفسك قبل أن تُحاسَب في يوم الوعيد .

نعم دُعيت إلى الصلاة وهي أهم من الحج وأعظم ، ودُعيت إلى الصيام وهو أهم من الحج وأعظم [1] ، ودُعيت لعموم الفرائض، ودُعيت لتجنب المحرمات فما واقعك أيها الملبي ويا من كرَّرت كلمات التلبية عند بيت الله وفي تنقلاتك بين المشاعر مع

---

(١) هذا يدل عليه دلائل كثيرة منها : أن الأحاديث التي يذكر فيها عليه الصلاة والسلام مباني الإسلام الخمسة يقدِّم فيها صلوات الله وسلامه عليه الصلاة والزكاة والصيام على الحج ((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ)) رواه البخاري ومسلم ، ثم أيضاً إذا تأملت من جهة أخرى نزول هذه الشرائع على نبينا صلوات الله وسلامه عليه وترتيبها في النزول أول ما بُعث بعث عليه الصلاة والسلام بالتوحيد بلا إله إلا الله ، لما كان عمره أربعين سنة مضى في الدعوة إلى كلمة التوحيد عشر سنوات ، ثم لما بلغ عمره خمسين سنة فرضت عليه الصلاة ، ثم مكث خمس سنوات بعد ذلك في السنة الثانية من الهجرة فرض الصيام ، ولم يفرض الحج إلا في السنة التاسعة من الهجرة ؛ وهذا الترتيب يدل على أن التوحيد أعظم ثم الصلاة ثم الصيام ثم الحج . أما أن يكون الإنسان مضيعا للتوحيد مثلاً ويحج ماذا ينفعه حجه وقد ضيع الأصل والأساس؟ أو يكون مضيعاً للصلاة ويحج ماذا ينفعه حجه إذا كان مضيعاً للصلاة ؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام ((الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ)) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم ، وذُكرت عنده الصلاة يوما فقال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ)) رواه الإمام أحمد والدارمي وغيرهما ، والأدلة في شأن الصلاة وتعظيم قدرها وبيان رفيع مكانتها كثيرة جدا .

أوامر الله وفرائض الإسلام ؟ أيليق بمسلم أن يرفع صوته بالتلبية في الحج ثم إذا نودي إلى الصلاة لا يلبي النداء !! وإذا دعي إلى الصيام لا يلبي النداء !! وإذا دعي إلى البعد عن المحرمات والآثام لا يلبي النداء !! .

ولهذا ينبغي أن نستشعر أن التلبية وأعمال الحج تعمق في قلوبنا الاستجابة لله والامتثال لأمره ﷻ ، وكم من أناس أكرمهم الله ﷻ بأن استفادوا من حجهم فعادوا إلى بلادهم على خير حال وعلى أحسن مآل حفظاً للأوامر وبُعداً عن النواهي وتحقيقاً لتقوى الله عَزَّوَجَلَّ ، ولهذا جاء في أثناء آيات الحج قول الله سبحانه ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة:١٩٧] .

۞ المقصد السابع من مقاصد الحج : شهود منافع الحج العظيمة وعبرة المؤثرة ودروسه المتنوعة قال الله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج:٢٧-٢٨] .

ومنافع الحجِّ وفوائده لا يُمكن حصرُها، وعِبَرُه ودروسُه لا يُمكن عدُّها واستقصاؤها ، فإنَّ قوله تعالى في الآية: ﴿مَنَٰفِعَ﴾ هو

جمع منفعة ، ونكَّرَ المنافعَ إشارةً إلى تعدُّدها وتنوُّعها وكثرتِها، وشهودُ هذه المنافع أمرٌ مقصودٌ في الحجِّ ؛ إذ اللاَّم في قوله: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ لام التعليل ، وهي متعلِّقةٌ بقوله : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي: إن تؤذن فيهم بالحج يأتوك مشاةً وركباناً لأجل أن يشهدوا منافع الحجِّ ، أي: يحضروها ، والمراد بحضورهم المنافع : حصولها لهم وانتفاعهم بها .

ولهذا فإنَّ من الحريِّ بكلِّ مَن وفَّقه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لهذه الطاعة ويَسَّر له أداء هذه العبادة أن يكون حريصاً غاية الحرص على تحصيل منافع الحجِّ والإفادةِ من عِبَره وعظاته ، إضافة إلى ما يحصله في حجِّه من أجور عظيمة وثواب جزيل ومغفرة للذنوب وتكفير للسيِّئات، وجديرٌ بمَن نال هذا الرِّبحَ وفاز بهذا المَغنم أن يعودَ إلى بلده بحال زاكية ونفس طيِّبة وحياة جديدة مليئة بالإيمان والتقوى، عامرة بالخير والصلاح والاستقامة والمحافظة على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ .

۞ **المقصد الثامن من مقاصد الحج العظيمة** : التذكير بحال الأنبياء وسِيَر رسل الله عَزَّوَجَلَّ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والحج مليء بالمواقف والمشاعر والشعائر العظيمة التي تذكِّر

المؤمنين بأنبياء الله ، فهذه الأرض التي أكرمنا الله عَزَّوَجَلَّ بالتنقل فيها من مشعر إلى مشعر ومن منسك إلى منسك هذه الشعائر والمناسك خَطَاها قبلنا رسُل الله وأنبياؤه صلوات الله وسلامه عليهم ، قال عليه الصلاة والسلام : ((صَلَّى فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ سَبْعُونَ نَبِيًّا))[1] .

فقبلك في هذه الطاعة جاء إلى هذه الأراضي المباركة صفوة عباد الله ؛ فتستشعر هذا وتعمق في قلبك ارتباطَك بأنبياء الله وسيرَك على منهجهم وقفوَك أثرهم ، قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام:٩٠] . وهذا التذكر العظيم يأتيك في كل عمل من أعمال الحج :

- فإذا جئت إلى بيت الله فإنك تذكر أن الذي قام على بناء البيت هما خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ ﴾ [البقرة:١٢٧] .

- وإذا انتهيت من الطواف يأتيك قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة:١٢٥] .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤١٦٩) والطبراني في المعجم الكبير (١٢٢٨٣).

■ وإذا شربت من زمزم وسعيت بين الصفا والمروة ذكّرك ذلك بقصة هاجر تلك المرأة المؤمنة الصادقة المتوكلة على الله ﷻ لما جاء بها إبراهيم عليه السلام إلى هذه الأرض وأراد أن يرحل وأن يتركها بوادٍ غير ذي زرع هي ووليدها وحدهم ، قالت : « من أمرك أن تضعني بأرض ليس فيها ضرع ، ولا زرع، ولا أنيس، ولا زاد ، ولا ماء ؟ » قال: «ربي أمرني» ، قالت: «فإنه لن يضيِّعنا» ، وبقيت وحدها في ذلك المكان تلك المؤمنة المتوكلة على الله ﷻ . ثم لما اشتد بها العطش وخافت على وليدها من الهلاك صعدت على الصفا تبحث عن الماء وتنطلق إلى المروة تبحث عن الماء وترجع إلى الصفا وإذا نزلت بطن الوادي أسرعت وشدَّت ، ثم أذِن الله ﷻ بأن ينبع ماء زمزم وبقي من ذلك الزمان ماءً مباركاً ، يقول عليه الصلاة والسلام عنه : ((إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ وَشِفَاءُ سَقَمٍ)) [1] وإنه ((لِمَا شُرِبَ لَهُ)) [2] ، وصب منه عليه الصلاة والسلام على رأسه ، وحمل منه عليه الصلاة والسلام معه ، ماء مبارك ليس على وجه

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٢٩٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩٤٤١) .

(٢) رواه ابن ماجة في السنن (٣٠٦٢) ، والإمام أحمد في المسند (١٤٨٤٩) والحاكم في المستدرك(١٧٣٩) .

الأرض ماء أطيب ولا أنفع ولا أبرك منه . ثم أصبح السعي بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الله وطاعة من الطاعات العظام على إثر قيام هذه المرأة الصالحة المؤمنة ، حتى أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه كانوا يسعون في ذلك المكان على إثر تكرر وسير هاجر فيه إلى أن يسَّر الله ﷻ لها الماء .

■ وإذا ذهبت إلى عرفات جاء في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال للصحابة : ((كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام)) [1] ، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورَّثوا دين الله ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [2] .

■ وإذا رميت الجمار يذكِّرك ذلك بأصل الرمي وهو أنَّ الشيطان عرَض لإبراهيم الخليل عليه السلام ثلاث مرات في ثلاثة مواضع وكان يرميه بحصيات حتى يسيخ في الأرض ؛ فبقي ذلك شعيرة

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٨٨٣) ، والنسائي في السنن (٣٠١٤) واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٣٥٨٥) ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٨،٧) .

عظيمة يقوم بها المؤمنون في حجهم لبيت الله عَزَّوَجَلَّ إقامةً لذكر الله سبحانه .

■ وفي ذبح الهدايا أيضاً ما يُذكِّر بتلك القصة العجيبة العظيمة عندما رأى إبراهيم الخليل عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام فاستشاره في ذلك ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٣] جاء بابنه ومعه السكين ووضع السكين على رقبته استسلاماً منه ومن ابنه لأمر الله ففداه الله عَزَّوَجَلَّ بذبح عظيم .

فكل هذه الأعمال تذكر بالأنبياء فيخرج الحاج من حجه بعبقٍ طيِّب وذكرىً جميلة تربطه بصفوة الخلق أنبياء الله ورسله الذين هم خيار عباد الله وأفضلهم على الإطلاق مستشعرًا سلوكه سبيلهم ولزومه نهجهم عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين وعلى من تبعهم بإحسان.

۞ **المقاصد التاسع من مقاصد الحج العظيمة** : تعميق الإتباع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا تجد الحاج يحرص حرصاً شديداً في حجه أن يكون كل عمل من أعماله موافقاً للسنة ، وتجد الحاج يسأل كثيراً أهل العلم إن فعلت كذا هل عليَّ حرج ؟

هل هذا العمل صواب ؟ هل هو موافق للسنة ؟ تجد حرصاً شديداً من الحاج أن تقع أعماله في حجه وفق السنة ، وكلنا يعلم قول نبينا صلوات الله وسلامه عليه في حديث جابر في صحيح مسلم ((لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ)) [1] ، قال ذلك عليه الصلاة والسلام في حجه ، فتجد الحاج يحرص في باب المأمورات على فعلها والإتيان بها وافية ، ويحرص في باب المحظورات على تركها والبعد عنها ، وتجده يسأل بدقة ويتحرى بصدق أن تكون أعماله موافقة لهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

وانظر إلى تلك الكلمة العظيمة التي قالها عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عندما قبّل الحجر قال : ((أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ)) [2] ، وعَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ رضي الله عنه قَالَ: ((طُفْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ، قَالَ يَعْلَى: فَكُنْتُ مِمَّا يَلِي الْبَيْتَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ الرُّكْنَ الْغَرْبِيَّ الَّذِي يَلِي الْأَسْوَدَ، جَرَرْتُ بِيَدِهِ لِيَسْتَلِمَ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقُلْتُ: أَلا تَسْتَلِمُ؟ قَالَ: أَلَمْ تَطُفْ مَعَ

(١) صحيح مسلم (١٢٩٧) .

(٢) مسند الإمام أحمد (٣٠٧) .

رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: أَفَرَأَيْتَهُ يَسْتَلِمُ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ الْغَرْبِيَّيْنِ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: أَفَلَيْسَ لَكَ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: فَانْفُذْ عَنْكَ)) [1] أي : لا نفعل شيئاً من الأعمال إلا ما كان موافقاً لسنة النبي ﷺ .

ولهذا فمن المقاصد العظيمة والفوائد الجليلة التي يفيدها المسلم في حجه أن يحرص في حياته كلها أن تكون عباداته كلها وفق شرع الله عَزَّوَجَلَّ ويقول لنفسه : كما أني كنت في حجي لبيت الله أتحرى السنة وأسأل عنها وأتحرى موافقة هدي النبي ﷺ فلأكن هكذا في طاعاتي كلها وعباداتي جميعها ؛ فيتحرى السنة في صلاته ، وفي صيامه ، وفي كل عبادة يتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، ويحذر أشد الحذر من الأهواء والبدع التي ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها من سلطان .

۞ **المقصد العاشر من مقاصد الحج** : مخالفة المشركين في أعمالهم وضلالاتهم وجاهلياتهم وأباطيلهم التي لا حدَّ لها ولا عد .

ولهذا نرى أن نبينا صلوات الله وسلامه عليه خالف المشركين في أعمال الحج ؛ فكانوا يحجون ويلبون ويقفون في عرفات ويقفون

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٩٦) .

في المزدلفة لكنهم كانوا على ضلالة عمياء وجهالة جهلاء ، تلبيتهم قائمة على الشرك والتنديد ، كان الواحد منهم يقول في تلبيته : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما مَلَك » ؛ فيمزجون بالتلبية الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ واتخاذ الأنداد ، وهذا هو معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ في بيان حالهم ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦] وقوله تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢] . فأهلَّ النبي ﷺ بالتوحيد ، وكان المشركون في حجهم يفيضون من عرفات قبل غروب الشمس فخالفهم عليه الصلاة والسلام وجعل دفعه من عرفات بعد الغروب ، وكانوا يدفعون من مزدلفة بعد طلوع الشمس فخالفهم عليه الصلاة والسلام ودفع منها عندما أسفرت وقبل أن تطلع الشمس ، مخالفةً منه عليه الصلاة والسلام للمشركين .

وهكذا أعمال الحج والطاعات التي يقوم بها المسلم سالمةً من ضلالات أهل الجاهلية وسفَه أهل الباطل ، ولما خطب صلوات الله وسلامه عليه الناس في الحج قال في خطبته : ((أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي

سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ)) [1] ، وهذا فيه بيان للحال البئيسة، والفساد العريض الذي كان عليه الناس قبل الإسلام في عباداتهم وتعاملاتهم ؛ شِركٌ بالله ، ودماءٌ تُراق، وأموالٌ تُنتهب، وأعراضٌ تُنتهك، حيث بلغ فيهم الجهل مبلغه والضلال غايته، فنالوا بذلك مقت الله ﷻ وسخطه.

فينبغي على المسلم أن يكون مستفيدًا من حجه تحقيق المخالفة لأعداء دين الله ﷻ ، وأن يكون معتزاً بدينه ، وأن يكون حذِراً أشدَّ الحذر من التشبه بأعداء الله ، وأن يعرف لهذه النعمة قدرها، وأن يحفظ لها مكانتها، وأن يحافظ عليها، صلاحاً في نفسه، وإصلاحاً في مجتمعه ، سائراً على سنن الإسلام المستقيم وصراطه القويم، حَذِراً غاية الحذر من أعمال الجاهلية وغيِّها وسفهها وضلالها، لينال رضا الله ورحمتَه ، وليسْلَم من سخطه سبحانه ومقته ، وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال : ((أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلاَثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي

(١) صحيح مسلم (١٢١٨) .

الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَـقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ)) [1].

وإنَّ من المصيبة العظمى والبلية الكبرى أن ترى في أناس كثير إنهزاماً في الدين وارتخاءً في التديُّن وذلك ظاهر فيهم من جهة محاكاة الكفار والتشبه بهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَـبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ)) [2] ؛ قال ذلك عليه الصلاة والسلام محذراً أمتـه أشـد التحذير من اتباع الجاهلية وسلوك سنن الكفار والمشركين .

إنَّ الواجب على كل مسلم سمع هذا الحديث ووعـاه قلبـه أن يكون في غاية الحذر من تقليد الكفار والتشبه بأعداء دين الله تبـارك وتعالى ، ويتأكد هذا الأمر في مثل هذا الزمان الذي انفتح فيه الناس على عادات الكفار وتقاليدهم وطقوسهم وأعمالهم انفتاحاً واسـعا ؛ فأصبحت البيوت المسلمة يصل إليها من ثقافات الكفار - بـل مـن سخافاتهم - في قعر بيوتهم من خلال القنوات الفضائية ومن خلال الشبكات العنكبوتية ومن خلال المجلات الهابطـة ، حيـث تتلـوث

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٨٨٢) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (١٠٢٣٠) .

الأفكار وتفسد العقول وتُخلخَل الأديان وتخرب الأخلاق ويقع الناس في أنواع كثيرة من التشبه بأعداء دين الله ، ولاسيما في محيط كثير من شباب المسلمين وشابَّاتهم بسبب الجهل والبعد عن دين الله تبارك وتعالى ، روى الطبري في تهذيب الآثار عن النبي ﷺ أنه قال: ((ليأتين على الناس زمان تكون فيه القلوب قلوب الأعاجم)) [1] ، والمراد بالأعاجم أعداء دين الله من اليهود والنصارى وغيرهم من أرباب الكفر والضلال ؛ فيأتي على الناس زمان تكون فيه القلوب قلوب الأعاجم بسبب عدم الفقه في دين الله وكثرة الجهل واتجاه النفوس حينئذ إلى التشبه بالكفار وتقليدهم في أعيادهم وعاداتهم وألبستهم وغير ذلك من شؤونهم لحب الدنيا والتكالب عليها، وهي حالة بئيسة يتعوَّذ المسلم الناصح لنفسه منها أو من التلوث بها؛ أعاذنا الله أجمعين وحمانا من سلوك سبيل المغضوب عليهم والضالين.

۞ **المقصد الحادي عشر من مقاصد الحج العظيمة** : تذكُّر الآخرة وتذكر الوقوف بين يدي الله ﷻ ، وتأملْ أول ما يبدأ المسلم

(١) تهذيب الآثار(٢٠١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .
وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٣٣٥٧).

من أعمال حجه عندما يتجرد من زينته ولباسه والهيئة التي اعتاد عليها ، وكل حاج قد اعتاد في بلده على نوع من اللباس ، فتجد الجميع إذا وصلوا إلى الميقات تجردوا من المخيط واغتسلوا وتطيبوا ثم يلبس الجميع إزاراً ورداءً أبيضين نظيفين ؛ إزاراً يلُفُّ به جزء بدنه الأسفل، ورداء يضعه على عاتقيه ، بهذه الهيئة المتواضعة وهذه الصفة التي يتساوى فيها الجميع الغني والفقير والرئيس والمرؤوس والأمير والمأمور والصغير والكبير كلهم يستوون في ذلك .

وهذه الهيئة التي يستوون فيها وهم متجهين إلى بيت الله أيضاً يستوون فيها عند مغادرة هذه الحياة ، أرأيتم كل من يموت ما الذي يكون معه من دنياه ؟ وما الذي يدخل معه منها في قبره ؟ لا يدخل معه في قبره إلا قطع من القماش يُلَفُّ بها بدنه ويصلى عليه بعد أن يُغسَّل ثم يُدرج في قبره ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ قُلْنَا وَمَا بُهْمًا ؟ قَالَ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ)) [1] لا زراعة ولا تجارة ولا أموال ولا رئاسة ولا غير ذلك . فلباس الإحرام يذكِّر بلباس الكفن .

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٦٠٤٢) والحاكم في المستدرك (٣٦٣٨) .

والوقوف على صعيد عرفات يذكر بالوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة ؛ تأمل اجتماع الخلائق من أنحاء الدنيا على صعيد واحد في لحظة واحدة مَن الذي جمعهم هذا الجمع ؟ إنه رب العالمين الذي يجمع الأولين والآخرين على صعيد أرض المحشر يوم القيامة ، يُجمع الجميع من أولهم إلى آخرهم من مات حرقاً ، ومن أكلته السباع وخرج منها بعراً ، ومن دفن وضل في الأرض ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ ﴾ [السجدة:١٠] ؛ كل هؤلاء يجمعهم رب العالمين ؛ فوقوفك بعرفات يذكِّرك بالموقف الأعظم بين يدي الله ﷻ يوم القيامة .

والحجاج يقفون على صعيد عرفة وكل منهم يرجو أن تُعتق رقبته من النار في ذلك اليوم وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ)) [1] فأكثر يوم لله فيه عتقاء من النار هو يوم عرفة ؛ ولهذا ينبغي أن يكون طمع المسلم في هذا اليوم قوياً وشديداً أن تُعتق رقبته من النار وأن يخرج من أرض عرفات وقد أعتقت رقبته من النار . اللهم اعتق رقابنا من النار وآبائنا وذرياتنا وأزواجنا يا رب العالمين .

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٨) .

فالحج فيه مشاهد عظيمة وفيه مواقف جليلة تذكِّر الإنسان بالبعث والجزاء والحساب والوقوف بين يدي الله ﷻ يوم القيامة ؛ ولهذا تأمل - أيها الأخ الحاج الموفق - آيات الحج في سورة البقرة بماذا خُتمت ؟ قال تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ هذا أمر تأخذه معك إذا أتممت حجك ، وترجع إلى بلادك وهو معك ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ، لأن الحج يذكِّر بالحشر والجزاء والحساب ؛ فاتقِ الله يا من حججت بيت الله وتذكر أنك تُحشر إلى الله وأن الله ﷻ يحاسبك ويجازيك على ما قدَّمت في هذه الحياة ، واعلم أن هذه الحياة الدنيا مُدْبرة وأن الآخرة مُقبلة وأن لكل منهما بنون ، قال علي رضي الله عنه : ((فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ)) .

۞ **المقصد الثاني عشر من مقاصد الحج العظيمة** : تحقيق الأخوَّة الدينية والرابطة الإيمانية وهي تتجلى في الحج وتبرز فيه بأبهى صورها وأجمل حُللها ؛ فهاهم الحجيج يطوفون ببيت الله

ويجتمعون على صعيد عرفة ويجتمعون في مزدلفة لباسهم واحد ، ومقصودهم واحد ، ومعبودهم واحد ، وأعمالهم واحدة ، وقبلتهم واحدة ، ومتبوعهم رسول الله ﷺ واحد ، يشتركون في الآمال والآلام ؛ آمالهم واحدة وآلامهم واحدة وهمومهم مشتركة ، اجتمعوا في أعظم تجمع إسلامي يُظهِر الرابطة الإيمانية والأخوَّة الدينية ، هذا أحمر وهذا أسود وهذا عربي وهذا عجمي ، الكل يجمعهم دين الله ﷻ ، ولا فرق بين الجميع إلا بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ ، قال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات:١٣] و قال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) (١).

فالحج رابطة عظيمة تجمع أهل الإيمان على التآلف والتحاب والتعاون على البر والتقوى وعلى امتثال أوامر الله عَزَّوَجَلَّ وعلى مواساة الفقراء ، وانظر ذلك فيما يقدَّم في الحج من هدايا وما يكون فيه من

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٢٣٩١) .

فدية عندما يقصِّر الحاج في أعمال الحج الواجبة أو يرتكب محظوراً من محظوراته ، وكيف أنَّ هذا ينفع الفقراء نفعاً عظيماً ويفيدهم فائدة كبيرة ، فالحج يظهر فيه التآخي والترابط ويبرز فيه التآلف والتحاب والتعاون على البر والتقوى .

وفي هذا اليوم المبارك يوم عرفة يكثُر الحجيجُ من قول «لا إله إلاَّ الله» ، فهي خيرُ ما يُقال في هذا اليوم ، بل هي خير الكلمات على الإطلاق وأحبُّها إلى الله ، وقد ثبت في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [1].

وفي هذا إشارةٌ عظيمةٌ إلى أنَّ اجتماعَ المسلمين لا يكون إلاَّ على التوحيد لله والمتابعة للرسول ﷺ ؛ إذ بهما تذوب الأهواءُ وتتبدَّد العداوةُ والبغضاء ، وتلتقي القلوبُ وتجتمع الكلمة وتتَّحدُ الصفوف، وكلَّما ضعُف استمساكُهم بهذه الكلمة ضعُف حظُّهم من الاجتماع والأُلفة بحسب ذلك.

---

(١) سبق تخريجه .

ثـمَّ إنَّ هـذه الجمـوعَ الغفـيرةَ عـلى اخـتلاف ألـوانهم وتبـاين ألسنتهم وتباعد بلدانهم قد اجتمعوا على مقصَد واحد وغاية واحدة تتَّضح من خلال هذه الكلمة التي يهتفون بهـا ويُردِّدونهـا ، فالـذي جمعهم هو توحيدُ الله والإيمانُ به ، والذي ألَّف بينهم هو الخضوعُ لله والتذلُّلُ بين يديه رغَباً ورهباً ، رجاءً وخوفاً ، حُبًّا وطمعاً.

فكلمة التوحيد «لا إلـه إلاَّ الله» هـي الرابطـةُ الحقيقيَّـةُ التـي اجتمع عليها أهلُ دين الإسـلام ، فعليهـا يُوالـون ويُعـادون، وبهـا يُحبُّون ويُبغضون، وبسببها أصبح المجتمعُ المسلم كالجسـد الواحـد، وكالبنيان المرصوص يشدُّ بعضُه بعضاً.

فمن مقاصد الحجِّ العظيمة تقوية هـذه الرابطـة وتوثيـق هـذه الصلة ؛ فالربُّ المعبود واحد ، والقبلة المتَّجه إليها واحدة، والرسول المتَّبع واحد ، ولبـاس الإحـرام ، ومشـاعر الحـجِّ وأعمالـه واحـدة، ومكان تجمُّع المسلمين وزمانه واحد ، وشعار الجميع «لبَّيكَ اللهـمَّ لبَّيك» خضوعاً واستكانةً وانقياداً وامتثالاً، فأيُّ رابطـة أوثـقُ مـن هذه !! وأيُّ صلة أعظمُ من هذه الصلة!! .

ألا فليَعِ المسلمون ذلك ، وليحمدوا ربَّهـم عـلى هـذا الوشـاج المبارك والوفاق الكريم ، والحب والإخاء، ولْيَسْعَ كلُّ واحـد مـنهم

في تحقيق كلِّ ما يقوِّي هذه الصلةَ وينمِّيها ، وليبتعدوا عن كلِّ أمر يضعفها ويوهيها ، وليطرح الجميعُ العصبيات العرقية، والشعارات القومية، والنَّعرات الجاهلية، والتحزُّبات الضيقة ، وليجتمعوا على التوحيد والإيمان .

۞ المقصد الثالث عشر من مقاصد الحج : التربي على الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة والتحلي بجميل الخصال وكامل الآداب ، والحج مدرسة مُثلى للآداب والأخلاق يتربى فيه المسلم على الآداب الفاضلة ، وحُسن المعاملة ، والبعد عن الإيذاء ، والبعد عن الجدال المذموم والخصومة ﴿ **فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ** ﴾ [البقرة:١٩٧] ، ((مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)) [١] ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول للناس في الحج : ((أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ)) [٢] ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لهم عند الجمرات : ((لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ

(١) رواه البخاري (١٥٢١) .

(٢) رواه مسلم (١٢١٨) .

بَعْضًا)) [1] ، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْـوَدَاعِ: ((أَلَا أُخْـبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَالْمُسْلِمُ مَـنْ سَـلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)) [2] .

فالحج يربي المسلم على التخلُّق بالأخلاق الفاضـلة ؛ والـتحلي بالصبر ، والرفق ، والأنـاة ، وحسـن المعاملـة ، وطيـب المعـاشرة ، لاسيما إذا استشعر أن الحجاج وفد الله ؛ فيترفَّق بهـم ويحسـن إلـيهم ويتلطف في معاملته لهم ، وحجه يربيه على ذلـك . وكلـما استشـعر الحاج هذا المقصد العظيم في الحج يرجع منه متأدباً بـآداب الإسـلام متحلياً بأخلاق الشريعة العظام .

۞ **المقصد الرابع عشر من مقاصد الحج** : تحقيق الوسطية التي هي زينة هذا الدين وجمال الشريعة ، فدين الله ﷻ دينٌ وسـط لـيس فيه غلو ولا جفاء ، وليس فيه إفـراط ولا تفـريط ، قـال الله تعـالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة:١٤٣] أي شهوداً عدولاً ، لا غلـو

---

(١) رواه أبو داود في السنن (١٩٦٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٥٥٠٦) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢٤) ، والإمام أحمد (٢٢٨٣٣) وغيرهما .

ولا جفاء ، ولا إفراط ولا تفريط ، وخيار الأمور أوساطها لا تفريطها ولا إفراطها .

والمراد بقوله سبحانه ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي : شهوداً عدولاً، لا يميلون عن الحق لا إلى غلو ولا إلى جفاء بل يتوسّطون ويعتدلون، والحج مليء بالمواقف العظيمة والعِبر الجليلة التي ترشد إلى أهمية التوسّط وتدلّ على أهمية الاعتدال ، ومن أهمِّ هذه المواقف في هذا الباب العظيم : النظرُ في هدي النبيِّ ﷺ وسنّته في رمي الجمار على ضوء ما ثبت عنه ﷺ ، ثمَّ النظرُ بعد ذلك إلى أحوال الناس مع سنّته، فإنَّ حالهم في ذلك بين غلوٍّ وجفاء، وإفراط وتفريط، إلاَّ من وفّقهم الله وأكرمهم بلزوم سنّته ومتابعة هديه واقتفاء أثره ﷺ.

روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ : ((الْقُطْ لِي حَصًى)) فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ وَيَقُولُ : ((أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا، قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي

الدِّينِ))[1] ، وإسناده صحيح على شرط مسلم كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ [2] وغيره من أهل العلم.

فقوله ﷺ في الحديث : ((أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا)) أي : الحصيات التي التُقطت له بحجمها المحدّد في الحديث وهو حجم حصى الخذف ، فاللفظ لا يتناول الحجم الصغير الذي لا يُسمى حصاة، كما لا يتناول الحجم الكبير الذي يُسمّى حجراً ، فالمشروع هو التوسّط . ومع وضوح هذا الأمر وشدّة بيانه فإنَّك إذا قارنت ذلك بحال بعض المسلمين ممّن جهلوا سنّة النبي ﷺ تجد منهم أمراً عجباً في هذا الباب بين غلوٍّ وجفاء وإفراطٍ وتفريطٍ وزيادة وتقصير، والحق قوام بين ذلك ، فلا يقصُر المسلم عن سنته ﷺ شأن أهل التفريط والجفاء، ولا يزيد عليها شأن أهل الإفراط والغلوّ، وإنَّما يكون عدلاً وسطاً.

وقوله ﷺ : ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ)) عام في جميع أنواع الغلوّ في الاعتقادات والأعمال ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالمسلم منهيٌّ عن الغلوّ في كلِّ أحواله ، ممنوع منه في كلِّ

---

(١) المسند (١/ ٢١٥)، وسنن النسائي (٥/ ٢٦٨)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٠٦٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٩٣) .

شؤونه ، مأمور باقتفاء آثار الرسول الكريم ﷺ واتّباع سنته في الأحوال كلّها.

وهذه الصورة التي تتضح لنا في هذا المقام بهذا المثال الجلي توضح لنا وسطية الدين في الأمور كلها ، فدين الله ﷻ وسط بين الغلو والجفاء والإفراط والتفريط . فيخرج المسلم من حجه بفائدة عظيمة ومقصد جليل يتربى عليه في الحج بأن تكون أعماله دائماً وسطاً لا غلو فيها ولا جفاء ، والوسطية إنما تكون بموافقة السنة ، فليحذر أشد الحذر من تجاوز السنة سواء بغلو أو جفاء ، والشيطان حريص تمام الحرص على عبد الله المؤمن ليصرفه عن الجادة وليبعده عن صراط الله المستقيم إمّا إلى غلوّ أو إلى جفاء ولا يبالي بأيٍّ الأمرين ظفِر كما قال بعض السلف: « ما أَمَر الله تعالى بأمر إلاّ وللشيطان فيه نزغتان إمّا إلى تفريط وتقصير ، وإمّا إلى مجاوزة وغلوّ ولا يبالي بأيِّهما ظفِر» ، وهو قاعدٌ للمسلم بأطرقه لا يفترُ ولا يملُّ من الكيد له والتربّص به واستفراغِ كامل الوُسْع لإضلاله وصرفه عن الصراط المستقيم والهدي المستبين.

إنَّ الاعتدال في الأمور كلِّها، والتوسّط فيها، والبعدَ عن الغلوِّ والجفاء هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذي ينبغي أن يسلكَه

جميع المؤمنين كما أمرهم الله بذلك في كتابه، وكما أمرهم بذلك رسوله ﷺ ، فالتوسّط حقًّا والاعتدال هو الأخذُ بالحدِّ الذي حدَّه الله ﷻ لعباده بحيث لا يُدخلُ فيه ما ليس منه ، ولا يُخرج منه ما هو داخل فيه ، فبهذا امتدح الله المؤمنين ، فدينُ الله وَسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، وخيار الناس هم الوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين ، ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين، بل لزموا هدي سيِّدِ المرسلين وخيرةِ ربِّ العالمين وقدوةِ الناس أجمعين محمّدِ بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

هذه أهم وأعظم مقاصد الحج ، وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا جميعاً للعلم النافع والعمل الصالح وتحقيق هذه المقاصد ، وأن يزيدنا بصيرةً في دينه ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال ، وأن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأن يصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، والموت راحة لنا من كلِّ شر ، اللهم اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات إنك غفور رحيم جواد كريم ، اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم واغفر لنا إنك أنت الغفور

الرحيم وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين[1].

(١) أصل هذه الرسالة محاضرة ألقيتها في مسجد الخيف في منى بعد صلاة المغرب من يوم التروية عام ١٤٣٠ هـ ، وقد فُرِّغت من الشريط وأجريت عليها تعديلات وزيادات وتقديما وتأخيرا ، وفضلت أن تبقى بأسلوبها الإلقائي كما كانت في المحاضرة ، والله الموفق.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ـ المقدمة	٣
ـ المقصد الأول : تحقيق التوحيد	٥
ـ المقصد الثاني : الفوز برضا الله ﷻ والنجاة من ناره	٨
ـ المقصد الثالث : تحقيق تقوى الله جل وعلا	١١
ـ المقصد الرابع : إقامة ذكر الله ﷻ	١٣
ـ المقصد الخامس : تقوية الإيمان	١٦
ـ المقصد السادس : تعميق الاستجابة لله ﷻ	١٨
ـ المقصد السابع : شهود منافع الحج العظيمة	٢٣
ـ المقصد الثامن : التذكير بحال الأنبياء	٢٤
ـ المقصد التاسع : تعميق الإتباع لرسول الله ﷺ	٢٨
ـ المقصد العاشر : مخالفة المشركين في أعمالهم وضلالاتهم	٣٠
ـ المقصد الحادي عشر : تذكر الآخرة	٣٤
ـ المقصد الثاني عشر : تحقيق الأخوة الدينية	٣٧
ـ المقصد الثالث عشر : التربي على الأخلاق الفاضلة	٤١
ـ المقصد الرابع عشر : تحقيق الوسطية	٤٢
ـ الخاتمة	٤٦